شعر

لمياء المقدّم: الجوهر يسكن في التفاصيل

عناية جابر

لمياء المقدّم (1971) شاعرة تونسية مقيمة في لاهاي في هولندا، صدر لها ديوان بعنوان «بطعم الفاكهة الشتوية» (دار النهضة . 2007) وجديدها هذه السنة عن «دار آفاق» المصرية بعنوان «انتهت هذه القصيدة... انتهى هذا الحب». درست المقّدم الأدب العربي في جامعة «سوسة» التونسية، ومنها سافرت الى بلجيكا لدراسة «الفندقة» لكنها لم تُكمل. انتقلت بعدها الى هولندا حيث أنهت دبلومها في الترجمة من جامعة «لايدن»، قبل أن تعمل مع إذاعة هولندا كصحافية ومقدمة برامج إذاعية. في «انتهت هذه القصيدة... انتهى هذا الحب»، تؤكد المقدّم التطور الحتمي الآخذ بالشعر الى مزيد من الهواء، والحرية وانتعاش القصيدة من مخلفات سيمترية، في مساعي الشاعرة من أجل كتابة تُشبهها في الدرجة الأولى، ومن أجل إعلاء كل ما يبدو مُهمشاً، وبسيطاً، تفردهُ في قصيدتها، وتؤكد جوهر وجوده كضرورة لحركة الحياة ككل، ولإثراء الشعر في نحوه والتفاته إلى الصفوف الخلفية من المشاعر والكائنات والمشاهد التي يُهملها الشعر لصالح الأفكار.

عن علاقة المقّدم بالتفاصيل، ترى أنّ ما تقوم به يشبه «الزوم» على التفاصيل، وهذا تكتيك تعلمتهُ في الغرب: «لأنني عندما احتّك بمن التحقوا مؤخراً بالحياة في الغرب، ألاحظ أنهم لا يملكون هذه الخاصية. هي ليست عملية واعية في الأساس، لكن يبدو أنها تتكون مع الوقت. التفاصيل مهمة جداً لأنّ مجملها يصنع الكلّ أو كما تُسمينه الأشياء الكبيرة. التفاصيل تترك مساحة أوسع للتخيّل، وكلها ليس واحداً، ويختلف من شخص إلى آخر بحسب صياغته وتركيبه للتفاصيل وتعامله معها. دعيني أقول إنّ الكلّ خارج عنّا، لكن التفاصيل داخلية أو ذاتية. وكل تفصيل هو بدوره كلّ قابل للتفكيك إلى تفاصيل أخرى وهكذا الى ما لا نهاية. لا أحب أن أرى الأشياء الكبيرة. أفضّل أن أرى تفاصيلها الأصغر لأنها البعد الأعمق. تستطيعين القول في النهاية إنّني ألعب بالتفاصيل وأركّبها كما أشاء، لأخرج منها شيئاً مختلفاً في كل حين. وفي الغالب، لا يهمني الشكل العام. أعتبره عائقاً أمام المخيال وحاجزاً لا يجب أن يبلغهُ الشاعر».

عن تأثراتها، ترى المقدّم أنها تتأثر بالجميع: «كل من اقرأ له كبيراً كان أم صغيراً، من يكتب جيداً ومن يكتب أقلّ جودة. نحن في تفاعل مستمر مع ما نقرأ ونشاهد ونسمع. كل شيء يؤثر فينا ونؤثر فيه. حتى الأعمال التي يعتبرها غيري سيئة، ولا تستحق القراءة، أقرؤها أحياناً وبتمعّن كبير. هناك دائماً شيء ما يستحق أن نراه ونتعامل معه بجدية حتى في أدنى مستوياته الإبداعية. أيّ شيء ينتجه الإنسان هو إنساني، بما في ذلك القبح أو الابتذال».

لا تعرف المقّدم كيف تقيّم علاقتها بالشعر، ولا حتى بشعرها. هي إمّا تُحب القصيدة أو لا تُحبّها، حاستها هي ما تملي عليها ذلك. ترى أن «القصيدة الحديثة تقنية أكثر من اللازم. هناك اهتمام مبالغ فيه باللغة والصياغة الفنية إلى درجة أنّ كل القصائد تتشابه تقريباً. أحبّ القصائد التي تنهمر من نفسية الشاعر ومن لاوعيه، أي التي يوظف فيها حواسه بشكل فطري بدائي. قصائد برّية ربما مليئة بالأحاسيس المتطرفة والمتداعية بشكل مذهل».

> ترى القصيدة الحديثة تقنية أكثر من اللازم

المقدّم التي أمضت زمناً لا بأس به خارج وطنها، أضافت الغربة إلى قصيدتها، ومنحتها النقيض ونقيضه، وشعوراً إنسانياً عالياً يتجاوز فكرة الوطن بمفهومه الضيّق، والشوفينية التي تراها لدى الكتاب والشعراء: «أعيش داخل خليط من الثقافات والأجناس والانتماءات التي لا حصر لها، إلى درجة أنني أتساءل: كيف يمكن لشخص أن يعتبر نفسه أفضل من شخص آخر بسبب دينه أو جنسه أو لونه أو انتمائه الجغرافي؟ هذا جنون! فكرة الأفضلية فكرة سيئة ومدمرة. الغربة أيضاً منحتني العزلة، فأنا أعتبر نفسي وطن نفسي ولغته».

عن أحوال الشعراء في تونس والى أين وصلوا، تجيب: «الوصول موت. عندنا تجارب جديدة وجميلة وأجمل ما فيها أنها غير مكتملة. الشعر التونسي عانى من التهميش، وهناك ما يشبه المؤامرة الحقيقية على الشعراء في تونس. كثيرون يكتبون شعراً جميلاً وهذه ليست مجاملة للتونسيين ولا أتكلم هنا من باب التعامل الوطني. الشعر تجربة إنسانية والذين يعتقدون أنهم يحتكرونه أو يملكونه أو يتوارثونه دون غيرهم، هم ضيقو الأفق للأسف».

ترى المقدّم أن الحب محرّض قوي لكتابة الشعر، لأنه يتضمن كل المشاعر الإنسانية مجتمعة بكل تناقضاتها: الغضب، الكره، المعاناة، اللذة، الألم، الشوق، الصدمة، الخيانة، الصدق، لكنه ليس المحرّض الوحيد: «الالتصاق بالنفس هو ما يُحرّض في النهاية على الكتابة. لو كتب كلّ منّا عن نفسه، عن تفاصيله اليومية البسيطة ومشاعره الصغيرة لأثرينا الشعر بتجارب إنسانية عميقة ومتفردة».

مجلة

«اتجاه»: المصائر المتعثّرة

يزن الحاج

على عكس ما يُشاع بشأن «موت المجلات» وانتفاء دورها في عصر ما بعد الحداثة، سيلاحظ القارئ العربيّ تهافت هذه الفكرة بعد تأمل بسيط. ترافق تدهور وضع المجلات (الشهرية والفصلية) مع انهيار الاتحاد السوفياتي والسنوات التي تلت ذلك. بدا الأمر كأنّ المجلات العربية كانت مرتبطةً بالضرورة باليسار، ولذا بدأت مرحلة انهيارها مع موت الأب. مع ذلك، لاقت المجلات الأخرى المصير ذاته رغم تباين مواقفها السياسية مع التيارات اليسارية والقومية. وبمقدورنا تذكّر عدد المجلات قبل خمسة أعوام، أو عامين، أو عام واحد، ومقارنتها بما لدينا الآن. تكاد الساحة العربية تخلو من المجلات عدا تلك المكرّسة المدعومة بميزانية خليجيّة حكوميّة بالضرورة. مع تعاظم دور وسائل التواصل الاجتماعي والمواقع الإلكترونية، بدا الأمر كأنّ المجلة باتت ذات دور نافل، بخاصة بعد انتشار التحليلات السياسية والاجتماعية والثقافية والنقدية بحيث باتت مهنة من لا مهنة له. يحتاج الأمر إلى قليل من التفكير فحسب، ليدرك القارئ بأنّ تحليلات الصحافة اليومية التي اعتقدنا بأنّها ستُنهي دور المجلة، ستكون هي ذاتها السبب الأبرز في وجوب عودة المجلات. في هذا العصر بالتحديد لا بدّ من وجبة ضخمة تُهضَم على مهل بدلاً من الوجبات السريعة المعتادة.

أول ما يسترعي الانتباه في تصفح العدد 29 من مجلة «اتجاه» (شتاء وربيع 2015) هو التاريخ. هذه مجلة كانت فصليّة وأصبحت تصدر كل فصلين، تمهيداً ربما للإغلاق أو الصدور السنوي في أفضل الأحوال، بخاصة أنّها تراهن على خطّ سياسي وفكري يعاني من غيبوبة منذ ما يزيد على عشر سنوات: الخط القومي الاجتماعي الذي يتبنّى أفكار أنطون سعاده. ليست المجلة لسان حال جهة حزبية أو رسمية، وهنا تكمن سمتها البارزة الثانية: هي مجلة «منشقّين» أو «مستقلين» عن المؤسسة الحزبية، وهذه نقطة تُحسب للمجلة بلا شك، بصرف النظر عن نقاط الخلاف التي قد يجدها القارئ في المقالات والدراسات. تبدو «اتجاه»، وفق محتويات العدد، مثل الدوريات القومية الاجتماعية الأخرى التي صدرت في السنوات الماضية قبل أن تختفي تدريجاً. تستند المجلة إلى تنوّع كبير في مواضيع المقالات، من دون أن تنسى ترك حيّز معقول للمواضيع الحزبية أو العقيدية الخاصة.

سنجد في هذا العدد مقالين احتفائيين كتبهما عفيف عثمان وعلي حمية عن الفيلسوف ناصيف نصار، وقراءة جديدة لكتاب «صور حاضرة فينيقيا» كتبتها سلام إبراهيم، إلى جانب مقالات ودراسات تاريخية وأدبية لطارق شمس وأحمد عبده العجمي ونعيمة شكر ولؤي زيتوني (بالعربية) وفاتن المر وعماد زين (بالفرنسيّة). لعل أهم مواد العدد كانت محاضرة الباحث التونسي الطاهر بن قيزة «تشكّل الحداثة: تونس نموذجاً»، ودراسة الباحث شحادة الغاوي «في الديمقراطية والديمقراطية التعبيرية». رغم الاختلاف الظاهريّ بين مجالي الورقتين، إلا أنّهما تبحثان في النقاط ذاتها في العمق. يميّز بن قيزة بين الحداثة المفروضة من فوق عبر إرادة سلطويّة، والحداثة الصادرة من تحت من خلال المجتمع المدني والنخب الاقتصادية. يشير إلى أنّ النمط السلطويّ للحداثة يُفضي بالضرورة إلى قطيعة حادة مع الماضي تسبّب صدمة نفسيّة «يتكوّن على إثرها حاجز نفسي يعيق التعامل الهادئ مع قيم الحداثة المقوّضة لأكثر المعتقدات تغلغلاً في المخيال الجمعيّ»، فيما يتسبّب النمط المؤسساتي للحداثة بـ «أزمة فكرية خصبة النتائج حيث تلعب المؤسسات المعرفية والعلمية والاجتماعية دورها في استيعاب مظاهر الجدّة لإعادة بناء نفسها في سياق التقاليد النقديّة التي تميّز المجتمعات المفتوحة». وبما أنّ الحداثة التونسيّة كانت «فوقيّة»، بوصفها مفروضة سياسياً على يد بورقيبة، يؤكّد بن قيزة أنّ علاقة التونسيين اليوم بالحداثة علاقة خارجيّة، إذ لم تنجح في التغلغل في أعماق السلوكيات والعقليات، وبقيت ظاهرةً تخص المثقفين.

يحاول شحادة الغاوي في دراسته التمييز بين معنى الديمقراطيّة كما درج وانتشر، وبين الديمقراطية التعبيرية الخاصة بأنطون سعاده والعقيدة القومية الاجتماعيّة، في سياق الرد على انتقادات اتهمت عقيدة سعاده بكونها عقيدة دكتاتورية. قد يبدو نقاش الغاوي في هذه الدراسة غريباً، لكنّ أهميته تنبع بالذات من كونه ينطلق من داخل العقيدة القوميّة الاجتماعيّة بكل مصطلحاتها وتعابيرها الخاصة. ينفي الغاوي هذه التهم بالطبع، مستعيداً نقاش سعاده بشأن الديمقراطية حين أكّد سعاده أنّ الفينيقيين سبقوا جميع الشعوب والدول التاريخيّة إلى تأسيس الديمقراطية، لأنهم أسّسوا الملكية الانتخابية وجعلوا الملك منتخباً مدى الحياة (!) ثم يتابع الغاوي حديثه مستغرباً من متهّميه الذين يشاطرون خصوم الحزب رأيهم بشأن دكتاتوريّة الحزب المزعومة، ليؤكّد أنّ سلطة الزعيم (سعاده) المطلقة، وكونه وحده مصدر السلطتين التشريعية والتنفيذية، لا تتعارضان مع مبدأ الديمقراطية «لأن الزعيم حائز دائماً على ثقة أعضاء الحزب جميعهم وحائز على رضاهم وقبولهم وإرادتهم بكامل وعيهم، بل على إيمانهم به قائداً وهادياً للأمة والناس، وهذا الإيمان وهذه الإرادة وهذا القبول والرضى وهذه الثقة هي المعنى الحقيقيّ الناصع للديمقراطية». تنبع أهميّة هذا الخطاب لأنّه يمثّل حرفياً الموقف القومي الاجتماعي من مسألة الدكتاتورية والديمقراطية، وبذا يمكن ببساطة تفسير المواقف الحزبية الرسمية واصطفافاتها ابتداء من أواسط سبعينيات القرن الماضي.

> النمط السلطويّ للحداثة يُفضي إلى قطيعة مع الماضي (الطاهر بن قيزة)

بإمكاننا تخمين المصير القاتم للمجلات المستقلة استناداً إلى مظاهرها الواضحة في الأعداد الأخيرة؛ إذ نجد في حالة «اتجاه» بأنّ جميع الكتّاب المشاركين في هذا العدد هم من «أصدقاء التحرير»، وبأنّ المجلة تُباع بجهود ذاتيّة حين توزّع على المكتبات، وبذا بوسعنا توقّع أنّ مصير المجلة مرتبط بمصير أسرتها، حيث تبدو كأنها آخر حبل نجاة في هذه الأيام.